﴿سورة الطارق﴾

وفيها سبع مسائل :

المسألة الأولى: ما المراد بالطارق فى قوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ(١)﴾؟

والجواب: إن هذا السؤال قد أجاب الله ﷻ عنه فيما جاء بعد ذلك من آيات فقال ﷻ: ﴿**وَمَآ أَدرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ (٢)**﴾ فأجاب أن الطارق هو ﴿**ٱلنَّجمُ ٱلثَّاقِبُ (٣)**﴾، وعلى هذا فمعنى الطارق: (النجم؛ سُمي بذلك: لأنه يَطرُق – أي يطلُع – ليلاً، وكلُّ من أتاك ليلاً فقد طَرَقك، والثاقب: المضئ)[١] .

فائدة لا بد منها :

وهنا فائدة لا بد من التوقف عندها ألا وهى إن من شروط المفسر الحق أن يكون حافظاً للقرآن، ملماً به، عارفاً بمعانيه؛ لأن من أولى خطوات التفسير أن يبحث المفسر عن معنى الآية فى القرآن نفسه، فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً، (فما جاء مجملاً فى موضع جاء مبيناً فى موضع آخر، وقد تأتى الآية مطلقة أو عامة ثم ينزل ما يقيدها أو يخصصها؛ وهذا هو الذى يسمى: بتفسير القرآن بالقرآن)[٢]، لعل من أبرز ما يبين ذلك تفسير القرآن وبيانه للكلمات التى تلقاها آدم – عليه السلام – من ربه فلما قالها تاب الله عليه، وهى المذكورة فى سورة البقرة: ﴿**فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٧)**﴾[٣]، فإن هذه الكلمات جاءت مبهمة فى سورة البقرة ، أما سورة الأعراف فقد بيَّنت هذه الكلمات وذكرتها بنصها وذلك فى قوله ﷻ: ﴿**قَالَا رَبَّنَا ظَلَمنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغفِر لَنَا وَتَرۡحَمنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلخَٰسِرِينَ (٢٣)**﴾[٤]؛ وتفسير القرآن

---

(١) غريب القرآن ١/ ٥٢٣، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨ هـ، ١٩٧٨م.

(٢) مباحث فى علوم القرآن ص٣٤٦، مناع القطان، مكتبة المعارف، الرياض، ط٣، ٢٠٠٠م.

(٣) سورة البقرة / الآية ٣٧.

(٤) سورة الأعراف / الآية ٢٣.

بالقرآن هو أول ما يجب على المفسر اتباعه، فإن لم يجد المفسر ما أراد تفسيره فى القرآن الكريم بحث عنه فى السنة المطهرة، فإن لم يجد فى السُنَّة بحث عن التفسير فيما ورد من أقوال الصحابة الكرام ﷺ فإنهم أعلم هذه الأمة بكتاب ربها وسنة نبيها ﷺ .

المسألة الثانية: ما الحافظ الذى أشارت إليه الآية: ﴿إِن كُلُّ نَفس لَّمَّا عَلَيهَا حَافِظ (٤)﴾ ؟

والجواب: فإن المراد بالحافظ الملائكة، كما روي عن ابن عباس: **﴿إِن كُلُّ نَفس لَّمَّا عَلَيهَا حَافِظ (٤)﴾**: إلا عليها حافظ من الملائكة، وإسناده صحيح كما قال ابن حجر في فتح الباري.

وفي التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ومعناه عند الجمهور: أن كل نفسٍ من بني آدم عليها حافظ؛ يكتب أعمالها، يعني: الملائكة الحفظة)[١] .

ولا مانع من إطلاق الحفظ على الملائكة، فقد قال الله ﷻ في شأنهم: **﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾** [٢]، وقال الله ﷻ: **﴿وَإِنَّ عَلَيكُمْ لَحَفِظِينَ (١٠)﴾**[٣] وقال الله ﷻ: **﴿وَهُوَ ٱلقَاهِرُ فَوقَ عِبَادِهِۦ وَيُرسِلُ عَلَيكُمْ حَفَظَة﴾**[٤]، وقد ذكر ابن كثير في التفسير: (أنهم أربعة بالليل، وأربعة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الحسنات والسيئات، واثنان من ورائه وأمامه يحرسانه)[٥] .

وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم: (قال ابن عباس: هم الملائكة يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء القدر خلوا عنه، وقال علي ﷺ: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يُقدَّر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، وإن الأجل جنة حصينة، وقال مجاهد: ما من عبد إلا وله ملك يحفظه في نومه

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ، ٣ / ٣٠٧ .
(٢) سورة الرعد / من الآية ١١.
(٣) سورة الإنفطار / الآية ١٠.
(٤) سورة الأنعام / من الآية ٦١.
(٥) تفسير القرآن العظيم ، ٤ / ٤٣٧ .

ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما من شيء يأتيه إلا قال له: وراءك إلا شيئاً أذن الله فيه فيصيبه)[1] .

المسألة الثالثة: ما معنى الدافق والصلب والترائب التى وردت فى قوله: ﴿خُلِقَ مِن مَّآء دَافِقٍ (٦) يَخرُجُ مِنۢ بَينِ ٱلصُّلبِ وَٱلتَّرَآئِبِ (٧)﴾؟

الجواب: وصفت الآية الكريمة أصل خلق الإنسان من الماء الدافق وهو ماء الرجل "المنى" وهو ماء دافق أى متدفق قال الطاهر بن عاشور: (ومعنى دافق خارج بقوة وسرعة والأشهر أنه يقال على نطفة الرجل)[2]، والدفق أيضاً هو الصب، يقال: دفقت الماء أى صببته، ووصِف ماء الرجل بالدافق بمعنى المدفوق لأنه يُصَب فى رحم المرأة، وقيل إن المراد ليس ماء الرجل بل ماء الرجل وماء المرأة معاً، قال الثعلبى: (وأراد ﴿**مِن مَّآء**﴾: ماء الرجل وماء المرأة؛ لأن الولد مخلوق منهما، ولكنه جعله ماء واحداً لامتزاجهما)[3].

أما ﴿**ٱلصُّلبِ وَٱلتَّرَآئِبِ(٧)**﴾ فالصلب هو الظهر، وهو عظم الفقار المتصل فى وسط الظهر، أما الترائب فهى جمع مفردها: تريبة، وقد اختلف العلماء فى تحديد الترائب اختلافاً كبيراً، (فقال ابن عباس: موضع القلادة، وعن الوالي عنه: بين ثدي المرأة، وعن العوفي عنه: يعني بالترائب اليدين والرجلين والعينين، وبه قال الضحاك وعن ابن عليّة عن أبي رجاء قال: سئل عكرمة عن الترائب فقال: هذه ووضع يده على صدره بين ثدييه. سعيد بن جبير: الجيد، ابن زيد: الصدر، مجاهد: ما بين المنكبين والصدر، سفيان: فوق الثديين، يمان: أسفل من التراقي، قتادة: النحر جعفر بن سعيد: الأضلاع التي أسفل الصلب، ليث عن معمر بن

---

(١) جامع العلوم والحكم، عبد الرحمن بن فرج بن رجب، ص١٨٦، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ .

(٢) – التحرير والتنوير ، ٣٠ / ٢٣٣ .

(٣) – الكشف والبيان ١٠/ ١٧٩ .

أبي حبيبة المدني قال: عصارة القلبومنه يكون الولد، والمشهور من كلام العرب أنهما عظام النحر والصدر، وواحدتها تربية)[1].

قال الخازن صاحب التفسير: (قيل إن المني، يخرج من جميع أعضاء الإنسان، وأكثر ما يخرج من الدماغ فينصب في عِرقٍ في ظهر الرجل، وينزل في عروق كثيرة من مقدم بدن المرأة، وهي الترائب فلهذا السبب خصَّ الله تعالى، هذين العضوين بالذِكر) [2] .

المسألة الرابعة: ما الدلالة الإيمانية فى قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ (٩)﴾؟

والجواب: تشير الآية الكريمة إلى ما يجب أن يحذر منه كل عاقل، ألا وهو انكشاف الستر وظهور الخفى من الأعمال والأقوال والنيات يوم العرض على الله ﷻ، فهو يوم عظيم تظهر فيه كل خفايا العبد على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، قال الماوردى: (أن تبتلى بظهور السرائر في الآخرة بعد استتارها في الدنيا)[3] .

فهذا هو اليوم العظيم، يوم أن تتكشف الخفايا وتعلن البلايا ولا يملك المرء من أمر نفسه شيئاً فلا قوة من ذاته تعينه ولا ناصر خارجى ينصره، والمستور من ستره الله بستره، قال ابن عمر ﷺ: (يبدي الله يوم القيامة كل سرّ منها، فيكون زيناً في الوجوه وشيناً في الوجوه، يعني من أدّاها كان وجهه مشرقاً، ومن ضيعها كان وجهه مغبراً)[4] .

فعلى العاقل أن يستعد لهذا اليوم العظيم بإصلاح دخيلته، وإخلاص نيته، ومراقبة ربه فى السر والعلن، والمداومة على إصلاح سريرته كما يُظهر للناس حسن ظاهره، نسأل الله تعالى أن يسترنا بستره الجميل وألا يفضحنا بين خلقه ولا بين يديه .

(١) المرجع السابق ١٠/ ١٧٩ .
(٢) لباب التأويل فى معانى التنزيل ٧ / ٢٣٣ .
(٣) النكت والعيون ٦ / ٢٤٧ .
(٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٦ / ٤٨١.

المسألة الخامسة: ما الإعجاز فى وصف السماء بذات الرجع، والأرض بذات الصدع ؟

الجواب: وصف الله ﷻ السماء بصفة الرجع ووصف الأرض بصفة الصدع فقال: ﴿**وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجعِ (١١) وَٱلأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ (١)**﴾ وعندما نتأمل هذين الوصفين نجد فيهما دقة بالغة وإعجازاً قرآنياً عجيباً على النحو الذى سنراه :

أولاً: وصف السماء بالرجع :

الرجع من الرجوع وهو العودة إلى نقطة البداية، معنى هذا أن هناك شيئاً يخرج من السماء ثم يعود إليها، ولذا وصِفت بأنها ذات الرجع، والناظر فى كتب تفاسير القدامى يجد أنهم قد فهموا رجع السماء وحددوه بالمطر، فالمطر ينزل من السماء فى البحار ثم يتبخر جزء من ماء البحر ويصعد إلى السماء فيكوِّن السحاب الذى ينزل منه المطر ثانية فيتبخر الماء ويعود وهكذا فى حركة رجع مستمرة من السماء وإليها، فلم يفهم المفسرون من هذا الوصف إلا أحد معاني الرجع، وهو إرجاع المياه التي تم تبخيرها من على سطح الأرض في صورة أمطار تهطل على مناطق متفرقة.

ولكن اللفظ القرآني لم يقل: ذات المطر، بل قال: ﴿**ذَاتِ ٱلرَّجعِ (١١)**﴾ ويُفهَم منه أن السماء تقوم بإرجاع أمور أخرى غير المطر، وأن دلالات الرجع يجب عدم حصرها فى هذا الإطار الضيق وهو رجع المطر، وفي العقود المتأخرة من القرن العشرين كشف العلم عن صور أخرى لرجع السماء، فمن ذلك :

١- الرجع الاهتزازي للهواء (الأصوات وصداها):

تحتوي الطبقة الدنيا من الغلاف الغازي للأرض (نطاق التغيرات الجوية) على ٧٥ % من كتلة ذلك الغلاف، ويتكون أساساً من غاز النيتروجين (٧٨ % حجماً)، والأوكسجين (٢١.٩٥ % حجماً)، وآثار

خفيفة من بخار الماء، وثاني أكسيد الكربون، والأوزون، وبعض هباءات الغبار، وآثار أقل تركيزاً من الإيدروجين، الأرجون، الهيليوم، وبعض مركبات الكبريت.

وكل من التركيب الكيميائي والصفات الفيزيائية لهذا النطاق يعتبر من الضرورات الأساس للحياة الأرضية، ومنها القدرة على السمع، فلولم يكن لنطاق الرجع هذه الكثافة الغازية المحددة ما أمكن للاهتزازات المحدثة للأصوات وصداها أن تُسمع.

فعندما تهتز أحبالنا الصوتية تحدث اهتزازاتها ضغوطاً في الهواء تنتشر على هيئة أمواج تتحرك في الهواء في كل الاتجاهات من حولنا، فتصطدم بالجوامد وترتد على هيئة صدى الصوت أو تتلقاها طبلة الأذن لأفراد آخرين فتحدث بها من الاهتزازات والارتدادات ما يمكنهم من سماعها بوضوح، ولولا التركيب الكيميائي والصفات الفيزيائية المحددة لذلك النطاق ما سمع بعضنا بعضًا، ولاستحالت الحياة؛ وذلك لأن الصوت لا ينتقل في الفراغ لعدم وجود جزيئات الهواء القادرة على نقل الموجات الصوتية، وعندما تصطدم الموجات الصوتية بأجسام أعلى كثافة من الهواء، فإنها ترتد على هيئة صدى للصوت الذي له العديد من التطبيقات العملية.

والرجع الاهتزازي للهواء على هيئة الأصوات وصداها هو أول صورة من صور رجع السماء، ولولاه ما سمع بعضنا بعضًا وما استقامت الحياة على الأرض.

٢- الرجع المائي (المطر):

يغطي الماء أكثر قليلاً من ٧١ % من المساحة الكلية للكرة الأرضية، وهذا الماء اندفع كله أصلاً من داخل الأرض عبر ثورات البراكين، وتكثف في الأجزاء العليا من نطاق التغيرات الجوية والتي تتميز ببرودتها الشديدة، فعاد إلى الأرض ليجري أنهاراً على سطحها، ويفيض إلى

منخفضاتها مكوناً البحار والمحيطات، ثم بدأ هذا الماء في حركة دائبة بين الأرض والطبقات الدنيا من الغلاف الغازي حفظته من التعفن ومن الضياع إلى طبقات الجو العليا، وتعرف هذه الدورة باسم (دورة الماء حول الأرض).

وماء الأرض يتبخر منه سنوياً ٣٨٠.٠٠٠ كيلومتر مكعب أغلبها (٣٢٠.٠٠٠ كم٣) يتبخر من أسطح المحيطات والبحار، والباقي (٦٠.٠٠٠ كم٣) يتبخر من سطح اليابسة، وهذا البخار تدفعه الرياح إلى الطبقة الدنيا من الغلاف الغازي للأرض، وتحمله السحب حيث يتكثف ويعود إلى الأرض مطراً أو ثلجاً أو بَرَداً، وبدرجة أقل على هيئة ندى أو ضباب.

وحينما ترجع أبخرة الماء من الجو إلى الأرض بعد تكثفها يجري قسم منها في مختلف أنواع المجاري المائية على اليابسة، وتصب هذه بدورها في البحار والمحيطات، كما يترشح جزء منها خلال طبقات الأرض ذات المسامية النفاذية ليكون مخزون الماء تحت سطح الأرض، وهناك جزء يعاود تبخره إلى الجو مرة أخرى.

وماء المطر يسقط على المحيطات والبحار بمعدل ٢٨٤.٠٠٠ كيلومتر مكعب في السنة، وعلى اليابسة بمعدل ٩٦.٠٠٠ كيلومتر مكعب في السنة، وذلك في دورة معجزة في كمالها ودقتها، ومن صور ذلك أن ما يتبخر من أسطح المحيطات والبحار في السنة يفوق ما يسقط فوقها بمعدل ٣٦.٠٠٠ كيلومتر مكعب، وأن ما يسقط من مطر على اليابسة سنويّاً يفوق ما يتبخر منها بنفس المعدل (٣٦.٠٠٠كم٣)، ولما كان الفارق في الحالتين متساوياً تماماً فإنه يفيض من اليابسة إلى البحار والمحيطات ليحفظ منسوب الماء فيها عند مستوى ثابت في الفترة الزمنية الواحدة.

هذه الدورة المعجزة للماء حول الأرض هي الصورة الثانية من صور رجع السماء، ولولاها لفسد كل ماء الأرض الذي يحيا ويموت فيه بلايين

الكائنات في كل لحظة، ولتعرض كوكبنا لحرارة قاتلة بالنهار، ولبرودة شديدة بالليل.

٣- الرجع الحراري إلى الأرض وعنها إلى الفضاء بواسطة السحب:

يصل إلى الأرض من الشمس في كل لحظة شروق كميات هائلة من طاقة الشمس، ويعمل الغلاف الغازي للأرض كدرع واقية لنا من حرارة الشمس أثناء النهار؛ لأن ذراته وجزيئاته تمتص وتشتت وتعيد إشعاع أطوال موجات محددة من الأشعة الشمسية في كل الاتجاهات بعيداً عن الأرض، كما يعمل النطاق الأسفل منه (نطاق الرجع) كغطاء بالليل يمسك بحرارة الأرض من التشتت ويردها إلى الأرض.

ومن الأشعة الشمسية القادمة إلى الأرض يمتص ويشتت ويعاد إشعاع حوالي ٥٣ % منها بواسطة الغلاف الغازي للأرض، وتمتص صخور وتربة الأرض حوالي ٤٧ % منها، ولولا هذا الرجع الحراري إلى الخارج لأحرقت أشعة الشمس كل صور الحياة على الأرض، ولبخرت الماء، وخلخلت الهواء.

وعلى النقيض من ذلك فإن السحب التي تردّ عنّا ويلات حرارة الشمس في نهار الصيف هي التي ترد إلينا (٩٨ %) من أشعة الدفء بمجرد غروب الشمس، فصخور الأرض تدفأ أثناء النهار بحرارة الشمس بامتصاص حوالي ٤٧% من أشعتها فتصل درجة حرارتها إلى ١٥ درجة مئوية في المتوسط، وبمجرد غياب الشمس تبدأ صخور الأرض في إعادة إشعاع حرارتها على هيئة موجات من الأشعة تحت الحمراء تمتصها جزيئات كل من بخار الماء وثاني أكسيد الكربون فتدفئ الغلاف الغازي للأرض، كما تعمل السحب على إرجاع غالبية الموجات الطويلة التي ترتفع إليها من الأرض (٩٨%) مرة أخرى إلى سطح الأرض وبذلك تحفظ الحياة الأرضية من التجمد بعد غياب الشمس.

ولو لم يكن للأرض غلاف غازي لأحرقتها حرارة الشمس بالنهار، ولولا السحب المتكونة في الجزء السفلي من غلاف الأرض الغازي ما رجع إلينا الدفء المنبعث من صخور الأرض بعد تعرضها لحرارة الشمس، ولتشتتت هذه الحرارة إلى فسحة الكون، وتجمدت الأرض وما عليها من صور الحياة في نصف الكرة المظلم بمجرد غياب الشمس. وهذا الرجع الحراري بصورتيه إلى الخارج وإلى الداخل مما يحقق صفة الرجع لسماء الأرض.

٤- رجع الغازات والأبخرة والغبار المرتفع من سطح الأرض:

عندما تثور البراكين فإنها تدفع بملايين الأطنان من الغازات والأبخرة والأتربة إلى جو الأرض الذي سرعان ما يرجع غالبية ذلك إلى الأرض، كذلك يؤدي تكون المنخفضات والمرتفعات الجوية إلى دفع الهواء في حركة أفقية ينشأ عنها الرياح، والغالبية العظمى من المنخفضات الجوية تتحرك مع حركة الأرض -أي من الغرب إلى الشرق- بسرعات تتراوح بين٢٠ و٣٠ كيلومترًا في الساعة، وعندما تمر المنخفضات الجوية فوق اليابسة تحتكّ بها فتبطؤ حركتها قليلاً وتحمل بشيء من الغبار الذي تأخذه من سطح الأرض، وإذا صادف المنخفض الجوي في طريقه سلاسل جبلية معترضة فإنه يصطدم بها مما يعين على إبطاء سرعتها وعلى عود الهواء إلى أعلى، ولما كان ضغط الهواء يتناقص بالارتفاع إلى واحد من ألف من الضغط الجوي العادي -أي عند سطح البحر- إذا وصلنا إلى ارتفاع ٤٨ كيلومتراً فوق ذلك المستوى، وإلى واحد من مئة ألف من الضغط الجوي إذا وصلنا إلى ارتفاع ألف كيلومتر، فإن قدرة الهواء على الاحتفاظ بالغبار المحمول من سطح الأرض تضعف باستمرار مما يؤدي إلى رجوعه إلى الأرض وإعادة توزيعه على سطحها بحكمة بالغة، وتعين على ذلك الجاذبية الأرضية.

٥- الرجع الخارجي للأشعة فوق البنفسجية بواسطة طبقة الأوزون:

تقوم طبقة الأوزون في قاعدة نطاق التطبق بامتصاص وتحويل الأشعة فوق البنفسجية القادمة مع أشعة الشمس بواسطة جزيئات الأوزون (O_3)، وترد نسباً كبيرة منها إلى خارج ذلك النطاق، وبذلك تحمي الحياة على الأرض من أخطار تلك الأشعة المهلكة التي تحرق كلاً من النبات والحيوان والإنسان، وتتسبب في العديد من الأمراض من مثل سرطانات الجلد وإصابات العيون وغيرها، ويمكن أن تؤدي إلى تبخير ماء الأرض بالكامل.

٦- رجع الموجات الراديوية بواسطة النطاق المتأين:

في النطاق المتأين -بين١٠٠ و٤٠٠ كم فوق مستوى سطح البحر- تمتص الفوتونات النشيطة القادمة مع أشعة الشمس من مثل الأشعة السينية، فتؤدي إلى رفع درجة الحرارة وزيادة التأين، ونظراً لانتشار الإليكترونات الطليقة في هذا النطاق فإنها تعكس الإشارات الراديوية القادمة مع أشعة الشمس إلى خارج نطاق الأرض، كما تعكس موجات الراديو المبثوثة من فوق سطح الأرض وتردها إليها فتيسر عمليات البث الإذاعي والاتصالات الراديوية، وكلها تمثل صوراً مختلفة من الرجع.

٧- رجع الأشعة الكونية بواسطة كل من أحزمة الإشعاع والنطاق المغناطيسي للأرض:

يمطر الغلاف الغازي للأرض بوابل من الأشعة الكونية الأولية التي تملأ فسحة الكون، فتردها إلى الخارج كل من أحزمة الإشعاع والنطاق المغناطيسي للأرض، فلا يصل إلى سطح الأرض منها شيء، ولكنها تؤدي إلى تكون أشعة ثانوية قد يصل بعضها إلى سطح الأرض فتؤدي إلى عدد من ظواهر التوهج والإضاءة في ظلمة الليل من مثل ظاهرة الفجر القطبي.

والأشعة الكونية بأنواعها المختلفة تتحرك بمحاذاة خطوط المجال المغناطيسي للأرض، والتي تنحني لتصب في قطبي الأرض المغناطيسيين وذلك لعجزها عن عبور مجال الأرض المغناطيسي، ويؤدي ذلك إلى رد غالبية الأشعة الكونية القادمة إلى خارج نطاق الغلاف الغازي للأرض، وما يمكن أن يفلت منها ترده أحزمة الإشعاع، وهذه صورة من صور الرجع لم تعرف إلا بعد ريادة الفضاء في منتصف الستينيات من القرن العشرين.

٨- إذا اعتبرنا السماء بمعنى الكون وما فيه من نجوم ومجرات وأجرام سماوية مختلفة، فإن كل شيء في الكون يرجع إلى ما كان عليه، هذا ما تسلكه الأجرام السماوية في حركتها الدورية في أفلاكها الخاصة.

وعلى ذلك فإن وصف السماء بأنها (ذات الرجع) في القرآن الكريم من قبل ألف وأربعمائة من السنين يجمع كل هذه الصور التي نعرفها اليوم، وربما العديد من الصور التي لم نعرفها بعد، وكل هذا في كلمة واحدة وهي (الرجع)، وهذه الكلمة الجامعة هي شهادة صدق بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن سيدنا محمداً ﷺ الذي تلقى هذا الوحي الحق هو خاتم أنبياء الله ورسله، وأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي ومعلّماً من قبل خالق السماوات والأرض .

كما أن المتأمل فى الوصف بالرجع يجد جمال الوصف ودقته، فلم يقل:"ذات المطر" فيغلق المجال أمام صور أخرى كثيرة لرجع السماء بخلاف المطر؛ بل عبَّر بالرجع ليفهم منه القدماء ما يتناسب مع مداركهم وإمكاناتهم العلمية، ثم يترك الباب مفتوحاً أمام الأجيال التالية لهم ليكتشفوا المزيد من صور الرجع على النحو الذى ذكرناه آنفاً، وما زال الباب مفتوحاً أمام الأجيال القادمة ليضيفوا ما يكتشفونه إلى معجزة رجع السماء التى عبَّر عنها القرآن الكريم أحسن تعبير بما يصلح لكل زمان ومكان .

ثانياً : وصف الأرض بالصدع :

فسَّر القدماء وصف الأرض بالصدع بأقوال منها: أنه صدع الأرض عن النبات، أو صدع الطرقات فيها، أو صدعها عن الموتى يوم البعث والنشور، أو نحو ذلك ، لكن دلالة الصدع أوسع من ذلك حيث قال العلم الحديث ما عجز القدماء عن اكتشافه، وبيَّن أن أخص صفات الأرض التى تجعلها صالحة لحياة البشر هى صفة الصدع فيهاــ فهى صفة ملازمة للأرض على النحو الذى سنراه :

قوله ﷻ: ﴿**وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ (١٢)**﴾ في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة:

من المعاني الصحيحة التي فهمها الأولون من القسم القرآني بالأرض ذات الصدع معنى انصداعها عن النبات، أي انشقاقها عنه، ولكن لما كانت لفظة الأرض قد جاءت في القرآن الكريم بمعني التربة التي تغطي صخور اليابسة، وبمعني كتل اليابسة التي نحيا عليها، وبمعني كوكب الأرض كوحدة فلكية محددة، فإن القسم القرآني بالأرض ذات الصدع لابد وأن تكون له دلالة في كل معنى من معاني كلمة الأرض كما نجده في الشرح التالي:

أولاً: انصداع التربة عن النبات:

الصدع لغة هو كسر في الأرض تتحرك الأرض على جانبي مستواه حركة أفقية، أو رأسية أو مائلة؛ وتربة الأرض تتكون عادة من معادن الصلصال المختلطة أو غير المختلطة بالرمل، وهي معادن دقيقة الحبيبات (أقطارها أقل من٠.٠٠٤ من المليمتر) وتتركب أساساً من سيليكات الألومنيوم على هيئة رقاقات متبادلة من كل من السيليكا (ثاني أكسيد السيليكون)، والألومينا (ثالث أكسيد الألومنيوم، مع عناصر أخرى كثيرة، ويحمل كل راق على سطحه شحنة كهربائية موجبة أو سالبة على حسب نوع الصلصال المركب منه.

والصلصال من المعادن الغروية، والمواد الغروية لها قدرة الانتشار في غيرها من المواد نظراً لدقة حبيباتها، كما أن لها القدرة على تشرب الماء والالتصاق بأيونات العناصر، ولذلك فإنه عند نزول الماء على التربة أو عند ريِّها بكميات مناسبة من الماء فإن ذلك يؤدي إلى انتفاشها وزيادة حجمها، فتهتز حبيباتها، وتربو إلى أعلى حتى ترق رقة شديدة فتنشق لتفسح طريقاً سهلاً لكل من الجذير المندفع إلى أسفل، والسويقة المنبثقة من داخل البذرة النابتة إلى أعلى حتى تتمكن من اختراق التربة بسلام.

وتظهر على سطح الأرض مستمرة في النمو لتغطي باقي أجزاء النبات. ولولا خاصية انصداع التربة عند نزول الماء عليها أو ريّها ما أنبتت الأرض على الإطلاق، ومن هنا كان ذلك وجهاً من أوجه القسم بالأرض ذات الصدع لأهميته البالغة في إعمار الأرض وجعلها صالحة للحياة.

ثانياً: تصدع صخور اليابسة:

نتيجة لتعرض صخور قشرة الأرض للإجهاد بالشد أو بالتضاغط تتكسر تلك الصخور بواسطة مجموعات من الفواصل المتوازية والمتقاطعة على هيئة شقوق في قشرة الأرض، تمزق صخورها إلى كتل متجاورة دون حدوث قدر ملحوظ من الحركة على جوانب مستويات تلك الشقوق.

كذلك تحدث الفواصل نتيجة لعمليات التعرية التي تقوم بإزاحة كميات كبيرة من الصخور الظاهرة على سطح الأرض، بما يعين على تخفيف الضغط على الصخور الموجودة أسفل منها وبالتالي تخفيف شدة الإجهاد الذي كانت تعاني منه تلك الصخور فتستجيب بالتمدد فتتشقق على هيئة كسور تفصل أجزاء الصخور إلى كتل متجاورة دون حدوث حركة ملحوظة عبر تلك الفواصل.

وغالبية فواصل الأرض تقع في مجموعات متوازية ومتقاطعة في اتجاهين أو أكثر، وإن كان بعضها قد لا يكون له اتجاه محدد وأغلبها قليل العمق. وتحدث فواصل قشرة الأرض كذلك نتيجة لتبرد الصهارة الصخرية المندفعة من باطن الأرض قريباً من سطحها أو إلى سطحها على هيئة متداخلات نارية أو طفوح بركانية.

أما صدوع الأرض فهي كسور في قشرتها، يتم عبرها تحرك صخورها على جانبي مستوى الصدع حركة أفقية، أو رأسية، أو مائلة بدرجة ملحوظة، وتتراوح أبعاد تلك الصدوع تبايناً كبيرا، فمنها مالا يرى بالعين المجردة، ولا تكاد الحركة عبر مستواه تدرك، ومنها ما يمتد لعشرات الكيلومترات، وتبلغ الحركة عبر مستواه مبلغاً عظيما.

ومن هذه الصدوع ما يتكون نتيجة لشد صخور الأرض في اتجاهين متعاكسين، ومنها ما يتكون نتيجة للتضاغط في اتجاهين متقابلين، كما أن منها ما يتكون نتيجة انزلاق كتل الصخور عبر بعضها البعض. وتحرك صدوع الأرض النشطة يحدث عدداً من الهزات الأرضية، أما الصدوع القديمة فقد أصبح أغلبها خاملاً بلا حراك.

ولصدوع الأرض أهمية بالغة لأنها تمثل ممرات طبيعية بين باطن الأرض وسطحها، تتحرك عبرها الأبخرة والغازات المحملة بالثروات المعدنية، كما تتحرك المتداخلات النارية والطفوح البركانية المحملة كذلك بمختلف الصخور والمعادن الاقتصادية المهمة وبالعناصر اللازمة لتجديد صخور وتربة سطح الأرض.

والصدوع تلعب أدواراً مهمة في تكوين كل من النتوءات والخسوف الأرضية، والينابيع المائية، وبعض المكامن البترولية، كما تعين عمليات التعرية المختلفة في شق الفجاج والسبل، وفي تكوين الأودية والمجاري المائية، وفي جميع عمليات التعرية وتسوية سطح الأرض، وما يستتبعه

ذلك من تكوين كل من التربة والرسوبيات والصخور الرسوبية وما بها من الثروات الأرضية. وكما تكون الصدوع عاملاً من عوامل الهدم على سطح الأرض فإنها قد تكون عاملاً من عوامل البناء، فتبني الجبال والتلال والهضاب، كما تبني الأحواض، والأغوار، والخسوف الأرضية.

ثالثاً: تصدع الأرض ككوكب بواسطة أودية الخسف:

على الرغم من التعرف على عدد من أودية الخسف (الصدوع العملاقة) على سطح الأرض منذ زمن بعيد إلا أن العلماء قد اكتشفوا في العقود الثلاثة الماضية أن أرضنا محاطة بشبكة هائلة من تلك الأودية الخسيفة (الصدوع العملاقة) التي تحيط بالأرض إحاطة كاملة، ويشبهها العلماء باللحام على كرة التنس.

وتمتد هذه الصدوع العملاقة لآلاف الكيلومترات في جميع الاتجاهات بأعماق تتراوح بين ٦٥ ــ٧٠ كيلومتراً تحت قيعان كل محيطات الأرض وقيعان عدد من بحارها، وبين ١٠٠ــ ١٥٠ كيلومتراً تحت القارات، ممزقة الغلاف الصخري للأرض بالكامل إلى عدد من الألواح التي تعرف باسم ألواح الغلاف الصخري للأرض، وتطفو هذه الألواح الصخرية فوق نطاق الضعف الأرضي، وهو نطاق لدن، شبه منصهر، عالي الكثافة واللزوجة، وتنطلق فيه تيارات الحمل من أسفل إلى أعلى، حيث تبرد وتعاود النزول إلى أسفل فتدفع معها ألواح الغلاف الصخري للأرض متباعدة عن بعضها البعض في إحدى حوافها، ومصطدمة مع بعضها البعض عند الحواف المقابلة، ومنزلقة عبر بعضها البعض عند بقية الحواف.

وينتج عن هذه الحركات لألواح الغلاف الصخري للأرض عدد من الظواهر الأرضية المهمة التي منها اتساع قيعان البحار والمحيطات، وتجدد صخورها باستمرار عند حواف التباعد، وتكون سلاسل من جبال

أواسط المحيطات ومن الجزر البركانية، ومنها تكون السلاسل الجبلية عند حواف التصادم حيث يستهلك قاع المحيط تحت كتلتي القارتين المقابلتين له، وتصاحب العمليتان بالهزات الأرضية وبكم هائل من الطفوح البركانية، ويبلغ طول جبال أواسط المحيطات أكثر من٦٤٠٠٠ كيلومتر، وهي تتكون أساساً من الصخور البركانية المختلطة بقليل من الرواسب البحرية، وتحيط بالصدوع العملاقة. ومع تجدد صعود الطفوح البركانية عبر هذا الصدع العملاق (الوادي الخسيف) في وسط سلسلة الجبال البحرية يتجدد قاع المحيط بأحزمة حديثة من الصخور البازلتية المتوازية على جانبي الوادي الخسيف، ويهبط قاع المحيط بنصف معدل اتساع قاعه عند كل من شاطئيه، وبذلك تكون أحدث صخور قاع المحيط حول محوره الوسطي، وأقدمها عند هبوط قاع المحيط تحت كتل القارتين المحيطتين به. وهذه الحركة لألواح الغلاف الصخري للأرض كانت سبباً في زحف القارات، وتجمعها وتفتتها بصورة دورية، فيما يعرف باسم دورة القارات والمحيطات، وفيها قد تنقسم قارة ببحر طولي مثل البحر الأحمر إلى كتلتين أرضيتين تتباعدان عن بعضهما البعض باتساع قاع البحر الفاصل بينهما حتى يتحول إلى محيط، كما قد يستهلك قاع محيط بالكامل تحت إحدى القارات بدفع كتلة أرضية له تحت تلك القارة حتى يصطدما مكونين أعلى سلاسل جبلية على سطح الأرض، كما حدث في اصطدام الهند بالقارة الآسيوية، وتكون سلسلة جبال الهمالايا، وبها قمة (إفرست) أعلى قمة جبلية على سطح الأرض.

وهذه الصدوع العملاقة (الأودية الخسيفة) التي تحيط بالكرة الأرضية إحاطة كاملة بعمق يتراوح بين ٦٥ ــ١٥٠ كيلومترا، وبطول يقدر بعشرات الآلاف من الكيلومترات في كل الاتجاهات هي مراكز تتحرك عبرها ألواح الغلاف الصخري للأرض متباعدة أو مصطدمة أو منزلقة

عبر بعضها البعض. وهذه الصدوع العملاقة تعمل كممرات طبيعية للحرارة المختزنة في داخل الأرض والناتجة عن تحلل العناصر المشعة، ولولاها لانفجرت الأرض. وعبر هذه الصدوع العملاقة تندفع ملايين الأطنان من الصهارة الصخرية على هيئة طفوح بركانية تثري سطح الأرض بالعديد من الصخور والمعادن النافعة، وتجدد شباب التربة الزراعية، وتكون مراكز مهمة لاستغلال الحرارة الأرضية. وعبر هذه الصدوع العملاقة وما صاحبها من فوهات البراكين انطلقت الغازات والأبخرة التي كونت غلافي الأرض المائي والغازي، ولا تزال تنطلق لتجددهما، وخلال تلك العملية تفقد الأرض من كتلتها إلى فسحة السماء بعضاً من مادتها، وطاقتها تتناسب مع ما تفقده الشمس من كتلتها على هيئة طاقة حتى تظل المسافة بين الأرض والشمس ثابتة، لا تنقص فتحرقنا أشعة الشمس، أو تبتلعنا، ودرجة حرارة لهيبها ١٥مليون درجة مئوية، ولا تزيد فيتجمد وتتجمد الحياة من حولنا، أو تنفلت من عقال جاذبيتها فتضيع في فسحة الكون الشاسع، ليس هذا فقط، بل إن الغلاف الصخري للأرض قد تكون أيضاً عبر تلك الصدوع العملاقة، وذلك لأن الكثير من الشواهد الأرضية تشير إلى أن الغلاف الصخري الأول للأرض كان مكوناً من صخور البازلت الشبيهة بصخور قيعان البحار والمحيطات الحالية، وبالصخور المندفعة عبر الصدوع التي تمزقها، وإن الأرض كانت مغطاة بالمياه على هيئة محيط غامر واحد، وبواسطة النشاط البركاني فوق قاع هذا المحيط الغامر تكونت أولى المرتفعات فوق قاعه على هيئة عدد من السلاسل الجبلية في وسطه، ارتفعت قممها لتكون عدداً من الجزر البركانية. ومع تحرك تلك الجزر البركانية تصادمت مع بعضها البعض لتكون نوى عدد من القارات التي نمت بتصادمها مع بعضها لتكون قارة واحدة عرفت باسم القارة الأم Mother Continent orPangaea التي ما لبثت أن تفتتت بفعل ديناميكية الأرض وصدوعها العملاقة إلى القارات السبع الحالية التي ظلت تتباعد عن بعضها حتى وصلت إلى مواقعها الحالية.

وعبر صدوع الأرض العملاقة تكونت القشرة القارية بتركيبها الذي تغلب عليه الصخور الجرانيتية، وأثريت تلك القشرة ولا تزال تثرى بمختلف العناصر والمركبات على هيئة العديد من المعادن والركازات ذات القيمة الاقتصادية، وتكونت السلاسل الجبلية التي تثبت بأوتادها كتل القارات في قيعان البحار والمحيطات، أو تثبت قارتين ببعضهما البعض بعد استهلاك قاع المحيط الفاصل بينهما تحت إحداهما، وثارت البراكين ورجفت الأرض بالزلازل، وتحركت دورات الماء والصخور وعوامل التعرية، وتكونت التربة والرسوبيات والصخور الرسوبية وما تختزنه من الثروات الأرضية، وأصبحت الأرض صالحة لعمرانها بالحياة.

وهذه الصدوع العملاقة التي تمزق قيعان كل محيطات الأرض وقيعان عدد من بحارها (من مثل البحر الأحمر) توجد أيضاً على اليابسة وتعمل على تكوين بحار طولية شبيهة بالبحر الأحمر لتفتيت اليابسة إلى عدد أكبر من القارات وأشباه القارات، وتحاط تلك الصدوع القارية العملاقة بعدد من الجبال البركانية العالية من مثل جبل آرارات في شرق تركيا (٥١٠٠م فوق مستوى سطح البحر)، ومخروط بركان فيزوف في خليج نابلي بإيطاليا (١٣٠٠م فوق مستوى سطح البحر)، وجبل كيليمنجارو في تنجانيقا (٥٩٠٠م فوق مستوى سطح البحر)، وجبل كينيا في جمهورية كينيا (٥١٠٠م فوق مستوى سطح البحر).

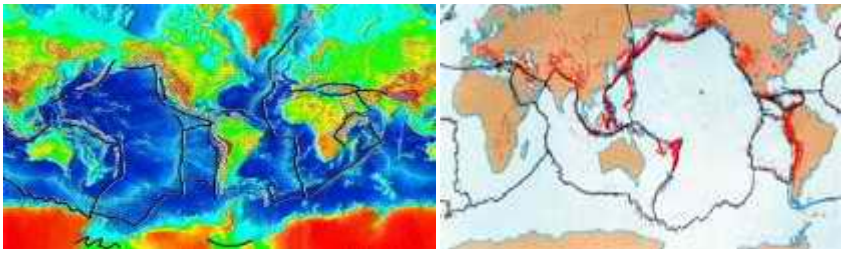

صورتان توضحان مجموعة من الصدوع التي تحيط بالأرض والتي تشكل باتصالها صدعاً واحداً وهذا يطابق ما أخبر القرآن الكريم عنه

وجه الإعجاز: تعتبر الصدوع التي تقطع القشرة الصخرية الخارجية من الأرض لعشرات الآلاف من الكيلومترات، وفي جميع الاتجاهات، ولأعماق تصل إلى ما بين ٦٥ إلى ١٥٠ كم من أبرز علامات الكرة الأرضية، ولم تكتشف هذه الصدوع إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وتم شرحها من خلال نظرية الألواح التكتونية التي تمت صياغتها في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي.

فسبحان الذي وصف الأرض من قبل ألف وأربعمائة سنة بأنها ذات صدع، لأن هذه الشبكة الهائلة من الصدوع العملاقة أو الأودية الخسيفة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض بعمق يتراوح بين ٦٥ــ١٥٠ كيلومترا، وتمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات لتحيط بالأرض إحاطة كاملة في كل الاتجاهات تتصل ببعضها البعض وكأنها صدع واحد. وسبحان الذي أقسم بالأرض ذات الصدع من قبل ألف وأربعمائة سنة تفخيماً لظاهرة من أروع ظواهر الأرض وأكثرها إبهاراً للعلماء، وأشدها لزوماً لجعل الأرض كوكباً صالحاً للحياة وللعمران، لأنه بدونها لم يكن ممكناً للأرض أن تكون صالحة لذلك، فعبر هذه الصدوع العملاقة خرج كل من الغلافين المائي والغازي للأرض، ولا يزالان يتجددان، وعبر النشاط الملازم لها تحركت ألواح الغلاف الصخري الأولي للأرض فتكونت القارات والسلاسل الجبلية، والجزر البركانية، وتجددت قيعان المحيطات، وتزحزحت القارات، وتبادلت اليابسة والمحيطات وثارت البراكين لتخرج قدراً من الحرارة الأرضية الحبيسة في داخل الأرض، والتي كان من الممكن أن تفجرها لو لم تتكون تلك الصدوع العملاقة، وخرجت كميات هائلة من المعادن والصخور ذات القيمة الاقتصادية مع هذه الثورات البركانية، ونشطت ديناميكية الأرض، وثبتت ألواح غلافها الصخري بالجبال.

وهنا نرى في صدوع الأرض أبعاداً ثلاثة: بعد لا يتعدى بضعة ملليمترات أو بضعة سنتيمترات في انصداع التربة عن النبات، وبعد آخر في صدوع اليابسة التي تمتد الحركات الأرضية عبر مستوياتها من عشرات السنتيمترات إلى مئات الأمتار، وبعد ثالث في الصدوع العملاقة التي تنتشر أساساً في قيعان المحيطات. كما توجد في بعض أجزاء اليابسة على هيئة أغوار سحيقة تتراوح أعماقها بين٦٥ كيلومترا، و١٥٠ كيلومتراً، وتمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات لتحيط بالأرض إحاطة كاملة على هيئة صدع واحد، ونرى أهمية كل بعد من هذه الأبعاد في تهيئة الأرض للعمران. ومن هنا كان القسم القرآني بالأرض ذات الصدع من قبل ألف وأربعمائة سنة، والعلم الكوني لم يصل إلى كشف تلك الحقيقة إلا في أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن العشرين، ولم يكن لأحد في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده إلمام بتلك الحقيقة الأرضية، أو إدراك لشيء من جوانبها، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدراً لها قبل ألف وأربعمائة من السنين غير الله الخالق.

وهذا السبق القرآني بالإشارة إلى تلك الحقيقة الأرضية وإلى غيرها من الحقائق الكونية هو ما يؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن هذا النبي الخاتم، والرسول الخاتم، الذي أوحي إليه القرآن، كان دوماً موصولاً بالوحي، ومعلماً من قبل خالق السماوات والأرض .

المسألة السادسة: هل يوصف ربنا بالكيد كما فى قوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيدا (١٥) وَأَكِيدُ كَيدا (١٦)﴾؟

والجواب : أنه لا يجوز أن يوصف اللهﷻ بالكيد، ولا يجوز أن يشتق له منه اسم ، وإنما يطلق في مقابل فعل العباد ؛ لأنه في غير المقابلة لا يليق بالله ﷻ، وفي معرض المقابلة فهو في غاية العلم والحكمة والقدرة ، والكيد أصله المعاجلة للشيء بقوة وهذا ما أجمع عليه السلف.

وكيد الكفار كما قال الشنقيطى: (إنهم يكيدون للإسلام والمسلمين، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم) أما كيد الله ﷻلهم (والله يكيد لهم بالاستدراج حتى يأتي موعد إهلاكهم، وقد وقع تحقيقه في بدر:إذ خرجوا محادة لله ولرسوله، وفي خيلائهم ومفاخرتهم، وكيد الله لهم : أن قلل المؤمنين في أعينهم، حتى طمعوا في القتال، وأمطر أرض المعركة،وهم في أرض سبخة، والمسلمون في أرض رملية فكان زلقاً عليهم وثباتاً للمؤمنين، ثم أنزل ملائكته لقتالهم . والله تعالى أعلم)[1] .

ولا بد من التنبيه على أن أسماء الله ﷻ توقيفية فلا مجال للاجتهاد فيها، أو إضافة أسماء إليها من غيردليل من القرآن الكريم أوالسنة المطهرة، فيجب الوقوف في أسماء الله ﷻ وصفاته على ما جاءت به نصوص القرآن والسنة لا نزيد على ذلك ولا ننقص منه، فلا نسمي أو نصف اللهﷻبمالم يسم أو يصف به نفسه في كتابه أوعلى لسان رسوله ﷺ وذلك لأنه لا طريق إلى معرفة أسماء الله ﷻ وصفاته إلا من طريق واحد هو طريق الخبر، أي : القرآن الكريم والسنة المطهرة .

المسألة السابعة: ما معنى رويدا فى قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا (١٧)﴾؟

الجواب: أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بأن يُنظِرهم ولا يتعجل عليهم، ولا يسأل الله تعجيل إهلاكهم، وأن يرضى بما يدبره في أمورهم، قال ابن عجيبة: (لا تدع بهلاكهم، ولا تُشغَل بالانتقام منهم، بل اشتغل بالله يكفِك أمرهم)[2]، ﴿**أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا (١٧)**﴾ أى أمهلهم قليلاً ، وقد حدث هذا الإمهال ثم أخذهم الله ﷻ أخذ عزيز مقتدر فى غزوة بدر فقتل الله ﷻفيها سبعين من أشرافهم، وأسر المسلمون منهم سبعين .

---

(١) أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن ، ٨ / ٤٩٧ .

(٢) البحر المديد ٨ / ٤٣٥ .